المحاضرة الثالثة

الإشكالية في البحث العلمي: المفاهيم، الأهمية، القواعد والأسس

تعتبر خطوة "تحديد الإشكالية" من أهم خطوات البحث العلمي، التي ينبغي على الباحث أن يُوليها عناية واهتماما كبيرين، لما لها من أهمية في نجاعة البحث وبلوغ الحقائق المعرفية المرجوّة بشكلٍ محكمٍ ودقيقٍ. وقد لا نُبالغ في الرأي عندما نؤكد على مدى صعوبة تحديد وصيّاغة إشكالية أي بحث من البحوث العلمية؛ كونها (الإشكالية) العنصر الأساسي الذي يوجّه البحث ويحصر نطاقه، إذ أنّ الخروج عن نطاق الإشكالية هو في الأصل خروج عن نطاق البحث بأكمله. ومنه يتعيّن على الباحثين أخذ الوقت الكافي وبذل الجهد اللاّزم في سبيل تحديد وضبط إشكالية بحوثهم، لما في ذلك من انعكاسات على مسار البحث برمّته.

I- تعريف الإشكالية:

I-1- التعريف اللّغوي: الأصل في كلمة "الإشكالية" في اللغة من الجذر اللغوي (ش ك ل). يدور حول الاختلاط، والالتباس، والاشتباه، والمشاكلة، والمماثلة، والموافقة. جاء في معجم مقاييس اللغة: "الشين والكاف واللاّم معظم بابه المماثلة، فنقول: هذا شكل هذا، أي مثله. ومن ذلك يُقال أمر مشكلكما؛ أمر مشتبه". وفي لسان العرب فإن الإشكالية من الفعل "أشكل" يؤشكل إشكالاً، ومنه أشكل الأمر؛ أي: التبس واختلط، وأمور أشكال: ملتبسة، وأشكلت علي الأخبار وأحكلت بمعنى واحدٍ، ومسألة مشكلة؛ أي معضلة.

والمشكلة هي الأمر الصعب الملتبس، والمشتبه، والإشكال مصدرٌ يعني الالتباس والغموض، و"إشكالي" صفة تعني معضل، ومخيل، وملتبس. وفي المعجم الوسيط "استشكل الأمر: التبس عليه؛ أورد عليه إشكالاً، والإشكال: الأمر يُوجب التباساً في الفهم". هذا وجاء عن الإشكالية أيضا في موسوعة المعرف – نقلا عن الصيرفي- دلالتها عن الأسئلة التي تتعلق بموضوعٍ ما وتحتاج للمعالجة والإجابة.

I-2- التعريف الاصطلاحي: تعدّدت المفاهيم الإصطلاحية للإشكالية في البحث العلمي، فقد عُرّفت على أساس أنها مجموعة الأسئلة التي تُطرح في ميدانٍ علمي محدّدٍ، وهي بمثابة الفراغ الحاصل في المعارف العلمية ضمن موضوع معيّن يحتاج إلى توضيح وتقصٍّ دقيقين. كما عرّفها "مُوريس أنجرس" بكونها: "عرض الهدف من البحث على هيئة سؤال يتضمّن إمكانية التقصّي والبحث بهدف الوصول إلى إجابة محدّدة".

هذا وتعرّف الإشكالية أيضاً على أساس أنها موضوع أو مسألة يحيط بها الغموض، أو موقف أو ظاهرة تحتاج إلى تفسير وتحليل، أو قضية تكون محلّ خلاف؛ وكأنّها عبارة عن موقف غامض أو متناقض أو محيّر يحتاج من الإنسان إلى تفسير مقنع لمعرفة علله وأسبابه، ذلك أن معرفة الأسباب تساعد على إزالة الغموض والإشكال. وتأتي الإشكالية في سيّاق السؤال المهيكل ضمن نصّ قصير يعرض للقارئ العلاقة التي تربط بين متغيرات البحث (مشكل البحث)، فتحدث بذلك فجوة لدى الباحث، تترجم إلى حالة من الدهشة لتدفعه نحو القيام بالبحث.

بناءً على ما سبق يمكننا القول أنّ الإشكالية هي عبارة عن سؤال مهيكل أو مجموعة الأسئلة التي تُطرح من قبل الباحث حول موضوع أو ظاهرة معيّنة، وهي قابلة للإجابة من خلال اتباع أساليب البحث والتقصي العلميين، بما يمكن من فهمها أو تفسيرها أو التحكم فيها بناءً على تقسيم معيّن حسب تخصّص الباحث.

وقد لا توجد إجابات كاملة لكثير من الإشكاليات في مجال البحث العلمي، إذ ليس المطلوب من الباحث أن يدعي أجوبة وحلولاً للإشكالية في حالة العجز عن تفسيرها أو التحكم فيها، بقدر ما هو مطلوب منه الوصول إلى الحقيقة المعرفية سلبية كانت أو إيجابية. فكم من جوابٍ سلبي عن إشكالية معينة كان له من القيمة العلمية ما لم يكن لتلفيق جواب إيجابي لها.

2- مفهوم مشكلة البحث:

يمكن تعريف المشكلة في مجال البحث العلمي على أساس أنها أمر مثير للقلق، قد نمتلك افتراضيا أو ضمنيا بوجود معرفة مسبقة لنا عن هذا الأمر، وبالتالي لا نبذل جهداً كبيراً في تقصّي الحقائق التي تقودنا إلى معارف جديدة عنه، وقد لا نمتلك القدر الكافي الذي يساعد في إزالة اللبس عنه وفهمه بشكل جيّد، ممّا يجعلنا أمام مشكلٍ حقيقي يتطلب بذل جهدٍ عقلي في إطار البحث. وبهذا فإن المشكلة في الجوهر هي ذلك الفارق الموجود بين ما نعرفه وما نريد معرفته بخصوص الظاهرة محلّ الدراسة، أو هي ما لا ينال المراد منه إلاّ بتأمل بعد الطلب.

وتدلّ المشكلة في أصلها على السؤال المطروح الذي يتطلب الحلّ عن طريق البحث، إذ أنّ انجاز مشروع البحث لا يعني فقط جمع المعلومات المكتوبة من أجل تلخيصها، بل توجد في الحقيقة مشكلة بحث عندما نشعر بضرورة تقليص الفارق بين ما هو كائن وبين ما نأمل أن يكون، بما يدلّ على وُجود فجوة لا بدّ أن نملأها في مجال المعرفة وبهذا يكون البحث نشاطا لحل المشاكل من أجل تقدم المعارف.

3- تحديد الفرق بين الإشكالية والمشكلة:

تعتبر مسألة الفرق بين إشكالية ومشكلة البحث من أهم المسائل التي تُثير جدلاً كبيراً بين الباحثين في مختلف التخصصات العلمية، إذ كثيراً ما يستعمل لفظ الإشكالية ولفظ المشكلة دون تدقيق بينهما؛ وكأنها من الألفاظ المترادفة. ولكن الحقيقة غير ذلك.

فعلى الرغم من تداخلهما (الإشكالية والمشكلة) في الغاية والهدف باعتبارهما خطوة مهمة ضمن خطوات البحث العلمي، بما يساعد على تقديم الفائدة للمعرفة الإنسانية وتطويرها، إلاّ أنّ هنالك مجموعة من الخصوصيات التي تميّز الإشكالية عن المشكلة ويمكن الإشارة إليها باختصار في النقاط التالية:

- الإشكالية ليست هي المشكلة، بل الأخيرة (المشكلة) هي جزء من الإشكالية، وبذلك فإن العلاقة بينهما هي علاقة الكل بالجزء والجزء بالكل، إذ يرى المفكرين أن الإشكالية هي بمثابة المظلّة التي تتسع لعددٍ من المشكلات؛ فإذا استطعنا أن نحدّد موضوع الإشكالية فإننا نكون بذلك قد عرفنا المشكلات التي تتبعها. فالمشكلة طابعها جزئي، والأسئلة التي تتناولها أسئلة جزئية. بينما الإشكالية طابعها شامل وعام يتناول القضايا الكبرى.

- المشكلة ينطلق منها الباحث عن طريق الاستلهام من الدراسات والبحوث السابقة أو من خلال ملاحظة المحيط الخارجي...الخ. عكس الإشكالية التي غالباً ما ينتهي إليها الباحث بعد جدّ وكدّ عصيبين؛ إذ هي عملية بناء معقّدة تتطلب كثيراً من الدقّة ومزيداً من الجهد والتفكير.

- باعتبار أنّ الإشكالية أوسع من المشكلة، فإننا نجد أن الإجابة في المشكلة محصورة، بينما القضايا التي تطرحها الإشكالية هي قضايا عميقة عالقة في الفكر الإنساني؛ تعكس البحث الدائم للإنسان من أجل أن يتكيف مع الوسط الذي يحيط به. وضمن هذا السياق يعدّ حلّ المشكلة أقلّ تعقيداً من الإشكالية، فالمشكلة قد تحتاج لحل واحدٍ عكس الإشكالية التي تحتاج لعدّة حلول.

- الإشكالية قضية كلية عامة تدور الشكوك حول نتائجها وتقبل في العادة الإثبات أو النفي؛ أي أنّ نتائج البحث فيها تبقى دائماً محلّ نقد. عكس المشكلة التي تأتي في سياق استفهام بغرض التمحيص والتحقيق، وغالبا ما يصل الباحث إلى حلول وأجوبة كافية عنها.

- المشكلة يمكن أن تتبلور من خلال النقص الحاصل في الإجابة على الإشكاليات المعنية، ذلك أن الكثير من الإشكاليات قد انتهى البحث فيها إلى بقاء بعض المعلومات من دون وضوح أو تدقيق أو تفسير علمي. فمن هذا المنطلق يمكن أن تظهر مشكلة جديدة تستهدف الإجابة عن تصوّر أو محورٍ لم يتوصل

الباحث للإجابة عنه في الإشكاليات، وهذا ما يدل على ارتباط مشكلة البحث بإشكاليته من جهة، واتساع الإشكالية عن المشكلة في التصوّر والحدود والمجال من جهة أخرى.

فعلى الرغم من هذه الخصوصيات المميزة للإشكالية والمشكلة في مجال البحث العلمي، إلاّ أنّهما يمثلان معاً السعي الدائم للباحث نحو البحث عن الحقائق التي تخصّ المعرفة الإنسانية في تخصصاتها المتعدّدة والمتشعّبة.

4- مكانة وأهمية الإشكالية في البحث العلمي:

إنّ البحث العلمي ما كان ليأخذ مكانة متميزة كأساسٍ لتقدّم المعارف وتطوّر الإنسانية لولا أنّه في الأصل نشاط لحلّ إشكاليات ومشاكل، بما يساعد على تقدّم المعارف الإنسانية وتطويرها. ومنه يمكننا التأكيد على مكانة وأهمية تحديد الإشكالية وضبطها عند القيام بأيّ بحث علمي، إذ لا وجود لبحث من دون إشكالية أو مشكلة.

وتبرز أهمية الإشكالية في كونها تؤثر تأثيراً كبيراً على بقية خطوات البحث. وبناء على تحديدها يتحدّد المنهج المستخدم والأدوات المناسبة في كامل مراحل البحث، فبقدر ما كان الباحث ناجحاً في ضبط إشكالية بحثه بقدر ما كان مسار البحث موفقاً. ويمكن الوقوف على أهمية الإشكالية بوضوح من خلال النقاط التالية:

- تعتبر الإشكالية أساس البحث العلمي؛ ذلك أن البحث الذي يبدأ من فراغ لا ينتهي إلاّ بفراغ وعليه يتعين على الباحث أن يشعر عند بداية مسار البحث بوجود إشكالية محدّدة ومضبوطة في المجال الذي يريد أن يبحث فيه.

- تساعد الإشكالية على تحديد الإطار العام الذي يعمل فيه الباحث، بحيث أنّها تقصي كل الجوانب التي لا تتعلق بالموضوع، كما أنها تساعد على معرفة العلاقات القائمة بين المتغيرات الرئيسية في موضوع ما، بما يجعل الهدف واضحاً في نطاق الإشكالية المطروحة.

- تتضمن الإشكالية في جوهرها وصفاً للموضوع في حدّ ذاته، وشرحاً منطقياً عاماً لأهميته والحاجة إليه سواءً من حيث الناحية النظرية أو التطبيقية. خصوصاً وأنّها تتطلب – من حيث الصياغة- الإلمام بالموضوع على هيئة سؤال أو تساؤل يطرحه الباحث ويسعى للإجابة عليه.

– إضفاء الشفافية والوضوح على صيرورة البحث. بما يساعد الباحث على التركيز وتفادي الابتعاد أو الخروج عن الموضوع. هذا وتُساهم الإشكالية أيضا في توضيح غاية البحث وأهميته بالنسبة للقارئ، ممّا يجعله يتشوّق أكثر للاطلاع على النتائج.

هكذا تكون الإشكالية بمثابة المحرك الجوهري الذي يرشد الباحث طيلة مسار البحث في موضوعه، فهي التي توضّح له المعطيات العامة من الخاصة وفق أسسٍ منطقية، وهي التي تمكنه من رسم خطوات البحث بصفة عامة بما يمكنه من الوصول إلى النتائج المرجوة.

5– أسس ومعايير تحديد وصيّاغة الإشكالية:

تعتبر الإشكالية عاملاً مؤثراً على صيرورة البحث برمّته، وعليها يتوقف مدى نجاح البحث في جزئه الأكبر، ذلك أنها تضع الباحث منذ البداية أمام رهانات الموضوع. وعليه يتعيّن على الباحث الإلتزام بجملة من الأسس والقواعد (الشروط) المنهجية والأكاديمية في تحديد وصيّاغة الإشكالية بشكل علمي ودقيق.

يمكن الإشارة إلى أهم القواعد والأسس المطلوبة في تحديد وصيّاغة إشكالية البحث العلمي في النقاط التالية:

– أن تكون الإشكالية قابلة للبحث والدراسة والاختبار، بحيث يستطيع الباحث أن يُجني ثمرة جهده العلمي بتطبيق أدوات الاختبار عليها. وهنا يتعيّن عليه (الباحث) أن يركز جهده على صيّاغة الإشكالية بما يتناسب وعمليات الاختبار.

– أن تكون إشكالية البحث جديدة لم يتم التطرّق إليها سابقاً، وأن لا تدور في مضمونها حول موضوع عام لا يستحق الدراسة، بما يعكس قيمتها العلمية والعملية للباحث والمجتمع في مجال التخصّص.

– أن تكون إشكالية البحث في حدود إمكانات الباحث من حيث الكفاءة والوقت والتكاليف ، ذلك أن بعض الإشكاليات قد تكون أكبر من قدرات باحثيها، بما يجعلهم يضيعون في متاهاتها ويصابون بردّة فعل سلبية. وربما يعيقون باحثين آخرين عن دراستها.

– يشترط أن تتميز إشكالية البحث بالدقة والاختصار وأن تصاغ في شكل سؤال لا يكتنفه غموض ولا لبس. وذلك خلال الاجتهاد في تحديد المصطلحات والمفاهيم لصياغة الإشكالية من دون أن تكون الصياغة مطولة كثيراً أو مختصرة لحد غير معقول. هذا مع تفادي طرح الإشكالية عن طريق تساؤلات مطلقة تتم الإجابة عنها بنعم أو لا.

– تحديد المجتمع البحثي بوضوح أثناء صيّاغته الإشكالية بذكر المتغيرات الرئيسية للموضوع، بحيث تأتي الإشكالية شاملة لمتغيرات الموضوع من دون أي إقصاء. هذا ويشترط أيضاً أن تعكس الإشكالية الإطار الزماني والمكاني خاصة بالنسبة للمواضيع والبحوث ذات الصبغة التاريخية.

– التقيد بالموضوعية في تحديد وصيّاغة الإشكالية بما يعكس قيمة البحوث العلمية.

– يستحسن أن تكون إشكالية البحث مستمدة من المجال المعرفي للباحث ومن تخصّصه الدقيق؛ بهدف الوصول إلى الأهداف والنتائج المرجوة، ذلك أن التخصص الدقيق هو عامل مساعد على اكتشاف المتغيرات التي تحتاج للدراسة والحلّ من خلال الاطلاع على مستجدات البحوث في مجال التخصّص.

6– الأخطاء الشائعة في تحديد إشكالية البحث العلمي والحلول المقترحة:

يرتكب بعض الباحثين العديد من الأخطاء الشائعة أثناء تحديد وصياغة الإشكالية، إمّا عن جهل بالمقومات المنهجية لصياغتها؛ فيقتصرون على اختزالها في طرح أسئلة عادية لا ترقى إلى مستوى طرح الإشكال الحقيقي للبحث، أو نتيجة ارتكاب أخطاء على مستوى اختيار العنوان فينعكس ذلك على صياغة الإشكالية، التي تصبح مركبة من اشكاليتين أو أكثر في البحوث ذات العناوين الاستفهامية. وعموماً يمكن توضيح أهم الأخطاء الشائعة والحلول المناسبة لها أثناء صيّاغة وتحديد الإشكالية من خلال النقاط التالية:

– عرض إشكالية البحث على شكل مجموعة من التساؤلات التي يجيب عليها أثناء البحث، وهذا خطأ غير مقبول، إذ يتعيّن على الباحث أن يقدّم إشكالية بحثه على شكل صيغة تقريرية أو سؤال محوريّ يعكس أجزاء موضوع البحث ومتغيراته.

– إهمال أحد عناصر الموضوع الأساسية على حساب العناصر الأخرى في ضبط الإشكالية، فيقدم بذلك متغير ثانوي على متغير رئيسي أو أكثر في صياغة الإشكالية، وهنا ننصح الباحثين بضرورة التقيد بالمتغيرات الرئيسية لموضوع البحث في صياغة الإشكالية مع تناول المتغيرات الجزئية في التساؤلات الفرعية.

– غياب الترتيب المنطقي للمتغيرات (الأجزاء) الرئيسية في طرح الإشكالية. إذ يتعين على الباحثين مراعاة التسلسل الدقيق في ترتيب المصطلحات المعبّرة عن الإشكال أثناء تحديد وصياغة الإشكالية.

– استخدام اللغة الضعيفة أو الغامضة في صياغة الإشكالية بما يجعلها دون متناول المتلقي. وفي هذا السياق يتعين على الباحث أن يجتهد على اختبار المصطلحات اللغوية التي تجعل من الإشكالية إشكالية قوية وواضحة وغير مبهمة.

– الإجابة على التساؤل الرئيسي أثناء تحديد إشكالية الدراسة، وهنا ننصح الطلبة بعدم تقديم أي معلومة سابقة لأوانها أثناء ضبط الإشكالية، مع ضرورة الابتعاد عن الكلمات التي تقترب في معناها من فك الطرح العلمي (الموضوع) الموجود والمكون للإشكالية.

– عدم توضيح الفترة الزمنية أو المجال الجغرافي في حال ما إذا كان الموضوع يخصّ على سبيل المثال حدث وقع في زمان ومكان محدّدين. وهنا يتعين على الباحث أخذ النطاق الزمني والمكاني بعين الاعتبار عند ضبط إشكالية البحث وفق تصوّر علمي منطقي واضح.

– تسرّع الباحثين في صياغة المشكلة وعدم التحقق من صياغتها بشكل صحيح، وهنا ننصح الباحثين بالتأني والاستشارة والاعتماد على خبرات الباحثين في مجال التخصص.

ملاحظات مهمة:

– كثيراً ما يطرح الطلبة على أساتذتهم مسألة العلاقة بين الإشكالية وعنوان البحث، فالأصل أنّ هناك ارتباط واضح بينهما. فعلى الرغم من أسبقية ضبط عنوان البحث عن تصوّر وتحديد الإشكالية، إلاّ أن هذه الأخيرة؛ أي الإشكالية تأتي لتوضيح العلاقة بين متغيرات (محاور) العنوان بصيغة الاستفهام الذي يتطلب الإجابة في متن البحث. وفي هذا السياق تجب الإشارة إلى أنّ الجدية في ضبط الإشكالية لا تقتصر على ترجمة العنوان في شكل سؤال أو تساؤل وفقط، بل الجدّية في ذلك أن يعمل الباحث على إيجاد علاقة بين متغيرات العنوان بما يساهم في ضبط الإشكالية البحثية، مع الحرص على احتواء الإشكالية على جوانب الموضوع المدروس.

– يتساءل الطلبة أيضا عن مسألة الإشكالية والتساؤلات بما يستدعي منا توضيح هذه النقطة. فالأصل أن الإشكالية ليست سؤالا معيّنا ومحدّدا؛ لأن السؤال في جوهره هو جزء من الإشكالية. غير أن ذلك لا ينف أبداً العلاقة القوية الموجودة بين الإشكالية ومجالها بشكل دقيق. فإذا كانت الإشكالية على صيغة التساؤل العام والشامل، فإن التساؤلات العلمية الجزئية هي التي توضّح المتغيرات والأجزاء الفرعية التي تشكّل الكلّ في الإشكالية، ويشترط أن تكون الأسئلة الفرعية في حدود المجال المعرفي للإشكالية، من دون أن تحمل في محتواها أي حكم بالموافقة أو المعارضة لأجزاء موضوع البحث.

يمكننا القول في خاتمة هذا الدرس أنّ عملية ضبط وتحديد الإشكالية هي واحدة من أهم خطوات البحث العلمي التي لا يمكن الاستغناء عنها بتاتا، إذ يتعيّن على الباحث أن يُوليها اهتماماً بالغاً لما لها من أهمية قصوى في التأثير على جميع مكونات البحث وأجزائه بالإيجاب أو السلب، ذلك أنّ الإشكالية

السليمة هي التي تساعد على الوصول إلى النتائج والحلول المرضية، بما يقدّم إضافات جديدة للمعرفة الإنسانية.